

ناصر قنديل

حديث الجمعة هذا الأسبوع فيه من المختصر المفيد ما يتعلق بتقرير بايكر هاملتون الشهير الذي يدعو إلى الاعتراف بهزيمة المشروع الأميركي في العراق وأفغانستان، وبسقوط دور «إسرائيل» الإقليمي، وولادة قوى جديدة صاعدة لا بدّ من الانخراط معها بتفاهمات تحفظ الاستقرار. وفيه أيضاً تذكير بأدوار كوفي عنان المتقلبة عندما خُلف مهمة الحُلّ السياسي للأزمة السورية ضمن زاوية ذُخر إن نفعت الذكرى، وفيه أيضاً تذكير بمقال كتبته في 12 تموز 2012 عن المقاومة وعن سورية، وعن نصر تموز الذي «هزّ الدني» والنصر الآتي الذي «حا يغيّر وجّ الدني»، ومسك ختام حديث الجمعة كلامه في الحبّ وغزل وبوَجّ وفوَجّ في «قالت له».

◆ في مثل هذه الأيام قبل ثمان سنوات، كان لبنان يقف عشية الحرب التاريخية التي رسمت مستقبل المنطقة عام 2006. فمنها ولدت معادلة القوة الجديدة الحاكمة في الشرق الأوسط، القائمة على تاكل قدرة الردع «الإسرائيلية»، ومنها ولدت مقاربة أميركية جديدة تمثلت بما ورد في تقرير بايكر هاملتون الشهير الذي وقّع عليه أركان الحزبين الديمقراطي والجمهوري، ورموز الإدارات المتعاقبة الديمقراطية والجمهورية من رؤساء استخبارات ووزراء خارجية ومستشاري أمن قومي، والذي يدعو إلى الاعتراف بهزيمة المشروع الأميركي في العراق وأفغانستان، وبسقوط دور «إسرائيل» الإقليمي، وولادة قوى جديدة صاعدة لا بدّ من الانخراط معها بتفاهمات تحفظ الاستقرار، على قاعدة الانسحاب من أفغانستان والعراق والقبول بشراكة أميركية - روسية في إدارة الاستقرار، وتقبّل دور إيران المحوري كدولة نوية فاعلة في أفغانستان والعراق والخليج، وبالنفوذ السوري في بلاد المشرق. لكن الأهم ما تضمنه التقرير من الضغط على «إسرائيل» لتطبيق قرارات الأمم المتحدة الخاصة بالصراع العربي - الإسرائيلي من دولة فلسطينية على الأراضي المحتلة عام 1967 وعاصمتها القدس الشرقية، وحلّ عادل لقضية اللاجئين استناداً إلى القرار ١٩٤ الذي ضمن حق العودة والتعويض، وصولاً إلى الانسحاب الكامل من الجولان حتى خطّ الرابع من حزيران، ومن مزارع شبعا اللبنانية. ومعلوم بعد ذلك حجم التعاون «الإسرائيلي - الخليجي، خصوصاً السعودي - القطري لإسقاط توصيات بايكر هاملتون وتقديم البدائل عنه أو الاجتزاء في تطبيق بعض ما فيه، و تجاهل الجوهرى مما أشار إليه كخارطة طريق للاستقرار.

◆ الانقلاب على بايكر هاملتون تبدّل من مرحلة إلى مرحلة، من مشروع الرهان على الانتخابات الإيرانية عام 2008 إلى إسقاط الرئيس أحمدي نجاد والمجيء مجدّداً بالرئيس محمد خاتمي تحت شعار القبول بالامبراطورية الإيرانية مع ملفها النووي، مقابل الخروج من فلسطين. وأسماها مارتن إنديك يومذاك بإسقاط فلسطين في إيران. وما إن فشلت وفاز نجاد في تموز 2008، حتى خُصّر لحرب غزة الأولى، والعنوان وفقاً لإنديك نفسه «إسقاط إيران في فلسطين». ومع تكريس الفشل «الإسرائيلي»، كان الرهان على المسار السلمي منخفض السقف يجلب السلطة الفلسطينية إلى بيت الطاعة. فكان مشروع هيلاري كلينتون عام 2010 للسلام الفلسطيني - «الإسرائيلي» الجزئي يسبق تنازلات منخفض «إسرائيلية»، لكن التطرّف «الإسرائيلي» تكفل بإباطته، والخطة كانت أنّ السلام سيفتح بعد حدوثه فرصة تحالف عربي - «إسرائيلي» في وجه

البناء



مختصر مفيد

إيران، ولكن لمجرّد كون كلفته إزالة ١٠ في المئة من الاستيطان في الضفة الغربية لتأمين التواصل الجغرافي بين أطراف الدولة الفلسطينية، كان المجتمع الصهيوني - السياسي والعسكري - كفيلاً برفضه.

◆ جاء الربيع العربي كانهجار لحال الغضب الشعبي على الحكومات وأنظمة الحكم فرصة لترجمة تفاهم أميركي مع تركيا وقطر، على اختبار فرضية تسليم دفة الحكم في المنطقة للأخوان المسلمين على قاعدة معادلة الإمبراطورية العثمانية ترث حكومات تونس ومصر مقابل أن تسقط سورية. وكانت الحرب العالمية على سورية، وها هي تنتهي بالفشل، وتسقط ما كان ومن كان وراءها، ومثلما كانت المعادلة التي توقّعتها تقرير بايكر هاملتون أن الاصرار على الصراع مع تحالف القوى الصاعدة في المنطقة الذي تمثله إيران وسورية ومعهما حزب الله وقوى المقاومة في فلسطين، والأخذ فقط بالانسحاب من العراق وأفغانستان، كل ذلك سيضعف الحكومات المركزية ويؤدّي إلى فوضى استراتيجية تشكل البيئة المناسبة لنمو الإرهاب وتجذّره. جاءت النتائج مطابقة وولدت كيانات إرهابية وتجذّرت وصارت دولاً. وها هو حكم «داعش» والخلافة يحقّ من العراق باب تقسيم كيانات المنطقة.

◆ في قلب التحوّلات الكبرى للربيع العربي، ودور الأخوان المسلمين، تاهت حركة حماس عن بوصلتها المقاومة، وتوهّمت أولوية هويتها الأخوانية على هويتها المقاومة الفلسطينية. ومع سقوط الأخوان في مصر وبدء الانتصارات في سورية، بدأت الحسابات الجديدة. فالعثمانية هزمت والطف المقاوم يقترب من تحقيق نصره، ولا مكان لحماس حتى في التنافس مع فتح عن يمينها والجهاد عن يسارها، إلا بالعودة إلى خندق المقاومة، وها هو العالم يشهد تبلور حلّفين كبيرين واحد يصعد سلاله القوة والحضور من روسيا والصين والبرازيل وسائر دول البريكس، ومعكسر تقوده واشنطن يهزم من أوكرانيا إلى سورية وهو يستعد للهزيمة في اليمن والعراق، وكان لحماس أن تنفتح عبر الجهاد وغيرها مرة أخرى على حلفاء الأمم الذين غادرتهم، والاستعداد لجولة مجابهة مع «إسرائيل» ترذّ لها بريق الحضور والدور وتحفظ لها المستقبل.

◆ راهنت «إسرائيل» على سقوط سورية وراهنّت على سقوط حزب الله في سورية، وراهنّت بعددٍ على ضعفها والشغاهما. ووجهت رسائل الدعم الناري والسياسي إلى موجعات القاعدة، من غارات جمرايا لوقف حرب القمير إلى غارات جننا لوقف حرب بيروت، وصولاً إلى قصف القميطرة والاغتيالات لتثبيت حزام أمني حدودي من المعارضين

حديث الجمعة

في مثل هذا اليوم

في مثل هذا اليوم قبل سنتين،

كتبت عن الحرب التي غيّرت وجه

التاريخ قبل ثماني سنوات. وكنا ولا

نزال في الحرب التي تغيّر التاريخ

والجغرافيا، لليومين والحربين

أستعيد الكلمات لنحتفل بالنصر

المقبل معاً.

12 تموز

ينتصف البدر في السماء وتخرج الذئاب من أوجرتها وقد ترصدتها النسور والأسود من مارون الراس وعبتا الشعب، ودارت ملحمة التاريخ فتكشّرت النصال على النصال، وانقشع الغبار «نصرك هزّ الدني».

يعرفون أنه نصر الأسد

دارت الذئاب و الأفاعي لتتصنّ في داخل القلعة واحتلت جزءاً منها، احتلت العقول بوهم ثورة والقلوب بقوّة العصبية والجيوب بمال الخليج والشهوات بإغراء السلطة، ودارت «تموز، أخرى بقناع مخادع.

منذ سنة ونصف السنة، تدور حرب عالمية لمحو آثار نصر تموز، والشعب والجيش في سورية يخوضان أشرف حرب وأعقد حرب وأشرس حرب لحماية وهج النصر. ولم تُضغ البوصلة على رغم ألم البتر في الساق وسكين ابن البلد ورمصاص الأشقياء.

جمعت لنا الدنيا قتلنا حسبنا الله ونعم

الوكيل، وبروح تموز قاتلنا ونقاتل.

والفخر سوري يرفع الراية أسدها ويقاتل، شمالاً لمنع التذويل.

وفي سورية يرفع الراية أسدها ويقاتل، والنصر صبر ساعة.

من «نصرك هزّ الدني» لسيد المقاومة، إلى «نصرك غير وجّ الدني» سنغني لأسد المقاومين احتفالنا الآتي.

قالت له

سوى وهم اكتشاف جديد لا يوجد، هذا هو خوفي من خوض غمار البحر وغمار التعمّق في حبك وخوض الجدل في ما بعد بعد الحب.

أخشى أنّ الأشياء الجميلة متى اكتشفنا مفاجاتها فقدت رونق أنّها سر الغموض والمجهول ومهابة ذلك، وصارت مجهود تحمّل التعوّد والتكرار وصبر المثابرة على المواصله إلى الغموض.

لكن، لأنني أحبك يا حبي المغامر، معك لا أضاف الجبال، كلما اكتشفتها معك أحبك أكثر وأكثر

فقال لها: وحده البحر ما زال عندك المجهول المكون بلالئ ومخار، كم أحبّ فيك ومعك خوض هذي البحار.

فقالت: وإن تعبت؟

قال لها: لو شغّت الشمس على مجداف صياد كما تترك فوق جفن عينيك لاكتفى من صيده وعاد مسترسلاً. فإن تعبت من الخوض هذا كتفي تركنين إلى وسادة لا يملكها ملوك الزمان، وغفوة مع تنهيدة الاستراحة بين موجة وموجة، ولساعدي ترفق الحارس الأمين بسنيده يفظك من عاتيات الموج، ومخاطر الانسياب بين فكي موجة تغار منك. فاطمئني أنّك ملكة محاطة بحراس أشداء وقلوب دافئة، ودعي لقلبك الطري أن يملك خشونة القرار بالمغامرة.

أجابت: لكن بين الموجة والموجة تنهيدة وحدها الموجة تعلم بها.

قال لها: إن أحسست ب بعض دوار، فهو دوار خوض البحر. وهذا يعني أنّنا أبحرنا وأنك شددت العزم على المغامرة، والتهوي أنّ فرمات تهديداتك هي ما يمنح القوّة لاندفاعة الموج، فإن أزعجك تلاطمها تنفّسي بهدوء وسترين البحر في سكون.

فقالت: ألم تشعر بعد أنني اعترف بخوض المغامرة وأنا أدعي علم الحساب؟

فقال ويده تترفق بتمشيط خصلة مشاغبة من شعرها: المغامرة لا نحسبها من رذاذ الماء على وجهك، بل تحققي من أسرار الخيال، ستدركين أنك في قلبها.

قالت له: البحر يشبه الحب، إن لم يكن هو الصب بجاذبيته وجماله وعمقه المجهول، ورهبة الدخول إليه من دون بوليصة تأمين، لخروج آمن. لكن ماذا يفعل البحر بوردة حمراء أو باسمنية بريئة؟

هل يحفظ لها الرونق والجمال والتدفق وبوح الأسرار وفوح العطر، أم تضع بين ضفاف موجة وأخرى؟ وتصير رقماً من حطامه، وتضيع عطورها في ثنايا رائحة الكون المهيب، المجهول في أعماقه، ويتكفل ملحه بإذابة كلّ نظارتها ليرميها على شاطئ نسيان مجهول كبقايا واحدة من ضحاياها التي لا يحسّ بها أحد؟

حبيبي، لا تأخذ من البحر قساوته بل حنان صوته، ورقة مائه وعذوبة ملامسته، وترمّق بباسمينة القلب وعطر الروح، فهما مدادك وحبر حياتك لعمر طويل احفظهما بأمان.

فقال لها: أنا لم أعبّر بحراً سوى بعينيّ. ولم أبحر إلا في مدى عينيك اللامتناهي.

فقالت له: إن غضبت منك سأشكوك للبحر، من دون أن ألامس ماءه أو أمخ عبايه، فالخوف يعتصرني كلما قررت أن أدخل لجة مائه وعصبيّ موجه، وأشعر أنّي أعادرك إلى المجهول. فلا تدعني أنزل البحر ودونه حبي لك، كلاكما بحري وقد اخترتك تمرين السباحة الذي كلما تعلمت درساً فيه اكتشفت جهلي أكثر.

فقال لها: لكن الحب مغامرة والمغامرون الجبناء يسقطون من خطوة التسلق الأولى نحو القمة، والحبّ بلا نظر إلى القمة وتطلّع إلى أعلى ركود وكأبة ويأس وإحباط، فلماذا تخافين وأنا معك، بحر الحبّ وجباله ميدان مجاهلتنا الحلوة التي لا نمل من اكتشافها. فكلما اكتشفتك أكثر أحببتك أكثر.

قالت له: أليس اللامتناهي تكراراً لامنتهي، وإعادة تصيينا بالملل وليس فيها من المغامرة حبّ الاكتشاف، بقدر ما فيها مغامرة صبر التحمّل لتكرار المعاد، ماء فمزيد من الماء وموج فموج أعلى وريح فريح أشدّ. وفي الجبال حجارة وصعود ثم صعود وحجارة، أليس الإصرار على المواصله مجرّد وهم اللامتناهي في تكرار وإعادة لا يجملهما شيء